سوناتا

سعيد حجاج

(المنظر عبارة عن حجرة مكتب . فى أحد الأركان مكتبة عامرة بالكتب والمجلدات. فى صدر المسرح لوحة المتأمل " لرودان " على يمين المكتبة يوجد تمثال كامل لفينوس . الكتب مبعثرة فوق ارضية الحجرة . الإبن جالس على مقعد الأب . الأم فى اقصى الحجرة على البيانو وحديثها هو الموسيقى . حين تسطع الإضاءة نجد الأب وقد جاوز الستين بقليل وهو يتجه نحو الكتب المبعثرة)

الأب : " ينظر للكتب المبعثر بينما ينبعث صوته الداخلى " يارب . الم يبق فى الوجود سوى الجحود ؟ " يلملم الكتب ويعيد رصها على ارفف المكتبة " فات الكثير ولم تتعلم شيئا . رغم كل ماحصلت عليه من علوم ميكانيكية عظيمة , كان يجب على الذين لقنوك . أن يعلموك شيئا

آخر . أكثر أهمية وحكمة .. أن تكون انسانا فحسب . كان هذا يكفيك لكى تصبح رائعا .

الابن : " يلتفت نحو الأب فى دهشة " أتقول شيئا حقا ؟

الأب : اتحدث مع نفسى فقط ؟

الابن : الآن ؟

الأب : لدينا دائما اشياء كثيرة نقولها لأنفسنا .

الابن : " يبتسم ابتسامة مشوبه بالفرح والسخرية معا "

الاب : " مستمرا " اننى اتحاور مع الانسان الذى هو انا الآن .. ومع الإنسان الذى كنته من قبل .. ومع الإنسان الذى احلم ان اكونه .....

الابن : " يقترب من الاب مندهشا"

الاب : ومع الإنسان الذى اريد ان اكونه .

الابن : ونحن؟

الاب : " متحاشيا اياه ومبتعدا عنه "

الابن : " فى غضب" أيجب ان نشرب من جحيم صمتك المزيد ؟ وأمى؟

الاب : ماذا أعنى بالنسبة لها ؟

الابن : مازالت تنظر فيك وكأنها تعبدك .

الأب : أميال عديدة تفصل بيننا . ولن نستطيع قطعها دون ان نصمت قليلا .

الابن : منذ اربعة اشهر لم تتكلم كلمة واحدة .

الاب : لنقف على أسباب تعاستنا بعضا من الوقت .انتم لا تكترثون بشيء. لاتبالون بشىء .. دمى منتفخة فى فضاء الكون غير هيابة لحمق تصرفاتها .

الابن : رغم كل ماحدث دعنى اعبر عن سعادتى لأننى ...

الأب : " يشير للكتب " لأنك بعثرت هؤلاء الأجلاء الذين أعطوا دمهم للإنسانية اكثر مما أعطتك آليتك المخيفة .. عبث خال من الروعة .

الابن : لأننى جعلتك بعد هذا الصمت تحدثنى .. تقترب منى . تكلمنى ولو غاضبا مرة .. فى نهاية الأمر انت لاتستطيع الا ان تحبنا .

الأم : " تعزف مقطوعة موسيقية "

الاب : ان الكراهية هى انتقام الجبان اذا مااخيف .

الابن :" منكسا رأسه "

الاب : هل يجب على ان اتحمل الإهانات لأن الجميع تحالفوا ضدى ؟

الابن : كلانا لايستطيع ذلك .. لا أنا ولا أمى .. فقط كنت أحاول تفتيت عزلتك .. اخراجك منها .. نحن أيضا لانستطيع الا ان نحبك .صدقنى .

الاب : لا عليك .. مابين الميلاد والموت _ وكلاهما لادخل لإرادتنا فيه .. تحدث اشياء كثيرة .. كنا نود جميعا لو لم تحدث .

الابن : أرجوك .

الاب : ومع ذلك نسلم بها كارهين .

(صمت طويل يذهب

الاب نحو اللوحة

يتأملها بينما الأم

تعزف والأابن يقترب

منها)

الابن : " للأم" عاد مرة اخرى .

الاب : هل يعتقد هؤلاء الذين يهمسون بصوت خفيض ثم يهربون .. اننى لا أسمعهم ؟

الابن : " للأم " عاد مرة اخرى .لكن للهذيان .

الاب : يقولون اننى أهذى لأننى قلت الحقيقة .

الابن :دائما مايجيد استعمال الكلمات التى تدعو للقنوط .

الاب : كيف يستطيع الإنسان ان يحبس دموعه أن يجعلها تسيل من أجل نفسه وتنسكب داخله .. " صمت " فى ازمنة تشبه هذه الازمنة التى نحياها قصرا .. تبقى المخاطرة واحدة . سواء كان الإنسان آثما أو بريئا .

الابن : " يقترب من الاب " أبى ...

الاب : " ينظر له حزينا "

الابن : ضميرك يؤنبك .؟

(تعزف الام الموسيقى بينما تطول لحظات الصمت بين الاب وابنه)

الاب : تأنيب الضمير لم يعد له وجود .. كغير ه من الفضائل .

الابن : " ينظر له "

الاب : وان لم نكن خالين منه تماما .

الابن : ألن تتحدث الى أمى ؟ تمسح على رأسها وتقبلها ؟ .. أتعرف ؟ اطفالى وزوجتى سوف يفرحون لأنهم باستطاعتهم أن يحدثوك وتحدثهم .. انهم مشتاقون لرؤيتك .. وانت ؟ الست كذلك ؟ ستشترى لهم لعبا أكثر بالطبع . هه ؟ ولى انا أيضا . مازلت طفلك الأثير ومازلت احتاج لرعايتك . جميعنا نحتاج لأن يطالعنا وجهك بشوشا ضاحكا .. " يدور فى الغرفة مرحا " سيعود كل شىء كما كان .. امى .. سيعود كل شىء كما كان .. " يقف فى المنتصف منتصرا " نعم . كان يجب ان يعود كل شىء كما كان .

الاب : كل شىء كما كان ؟ " ساخرا" كيف يعود كل شىء كما كان ؟ كثيرا مانقول أشياء ونأتى أفعالا لا نؤمن بها .. وكثيرا ما نرتكب اخطاءً مع ادراكنا المسبق انها كذلك .. لكننا نقع فيها رغم ذلك .

(صمت طويل)

الابن : " طوال فترة الصمت متردد المشاعر بين الرأفة والسخط. أخيرا يستطيع ان ينفجر فى وجه أبيه " كان صمتك يثير غضبى .. وهاهى حكمتك الآن تفعل ذلك .

(صمت طويل)

الابن : لماذا توقفت عن الحديث ؟ كيف عنَ لك أن تقضى كل هذا الوقت صامتا ؟ " صمت " انا ابنك .. وحيدك .. أعرف أننى قسوت عليك .. صحت فى وجهك ناعتا إياك بالمهرج . لكن شيئا ما داخل نفسى كان يلهبنى بالسياط طويلا.. هنالك أمى .. هل تراها ؟ لاتفعل الآن شيئا سوى الموسيقى .

الام : " تعزف مقطوعة موسيقيه "

الاب : " ينظر نحو الأم حزينا "

الابن : أبى ... لماذا ... ؟

الأب : إنه من الصعب أن أهرب من ذلك الشعور الكريه .. بأنكم تريدوننى أن أكون مجرد انسان آخر فى بيت النمل الإنسانى .. فعلت ذلك لأن الصمت كان هو المفتاح الخفى لكل ما كان قد آذانى وحيرنى .

الابن : لكنك آذيت امى .. وهاهى الآن على حافة مرض نفسى .. حتى الموسيقى لم تستطع سوى أن تزيدها مرضا .. أتصدق هذا ؟

الاب : " يتجه الى تمثال فينوس " ياربة الجمال اللانهائى .. هاأنت تقفين الآن يافينوس الرقيقة .. أيكون هو صمتى الذى صاح بك فهبطت الى هذه الارض ؟ أتعتقدين اننا سنكون أسعد حالا فى مكان آخر ؟ أنكون أسعد حظا هناك ؟ آه لقد رأيتك منذ زمن بعيد خلف شجرة فى حديقة البيت , ترقصين كفراشة فى الظلام " فى هذه

اللحظة تتجسد فينوس كراقصة باليه تؤدى رقصة
رومانسيه بينما الاب يكمل حديثه " لاضوء هناك ولاهنا ..
لكنك تنتظرين روحى .. أعرف .. انت تريدين حتما أن
اختصر عذابى ايتها الرقيقة الصامته .. اتنتظرين أن ألقى
بنفسى بين ذراعيك ؟ كنت دائما لااحب فى النساء الا
روح جمالهن .. ذلك اننى لااحب شيئا عاريا من الجمال ..
والا احببت نفسى .

الابن : أتعنى أن امى لم تكن تستطيع فهمك بالقدر الذى
يكفل لها

أن تصمت حين تراك ؟ أحببت روح جمالهن هنا فى
المنزل وأمام أعينها ؟
الاب : أرايتنى افعل سوءً ؟

الابن : أكان يجب على أن أراك كى أحس بمأساة أمى ؟

الاب : " مصححا" ظنون أمك ؟.. كل النساء اللواتى جئن الى
هنا كن نبع الهامى وتدفقى .

الابن : " مواجها له فى غضب " وصدمة امى بعشيقتك التى
انتحرت هاهنا فى هذه الغرفة ؟

الاب : تلك كانت راغبة فى جسدى بينما كنت راغبا انا فى
روحها .. ولاشىء آخر.

الابن : كانت أمى دا ئما تسميك بالجبان .

الاب : " صارخا فيه " أيها العاق .. ان الأبناء العاقين يملأون
المرات والشوارع بالصراخ والكذب والغباء .. الأبناء
العاقون لايضيرهم سوى أن تحاول الجلوس اليهم

لتحدثهم عن الإنسانية والجمال .. وانت عاق .. عاق ..
نعم ..وما يبعث على الغثيان يابنى هو تشبثك الدائم
واختيالك بغباءك .

الابن : خرجت من صمتك لكى تهذى .. لتصرخ فى وجوهنا
جميعا .. لتحيل البيت معركة .. أتريد ان تخبرهم انك
عدت ؟

الاب : ماشأنك بى ؟ ماشأن امك ..؟ ماشان العالم بى ؟ كل
شىء رتيب لاجديد فيه .. اننى أقضى ايامى فقط .. افعل
اليوم مافعلته بالأمس .. فقط لا أستطيع إتقانه بنفس
الدرجة .. " صمت " لقد تحول القبح الى جمال وأخذ وجه
الخير يذوى

(صمت طويل)

الابن : " ينتظر أن يتحدث الأب . لاشىء يحدث . يذهب الى
أمه مستعطفا " أمى
كلما أوغل فى الصمت خشيت أن يستمرىء ذلك
تماما .. اننى لاأستطيع ادراك كنه أى شىء فى بيتكم
هذا .. يجب علينا أن ندفع اللحظة الى قمتها ."يذهب لأبيه
" ابى أنا حزين من أجلنا .

الاب :" يصمت برهة وينظر له " هاأنا أجيبك دون سؤال ..
ودون أن أخشى حتى سوء فهمكم جميعا , مع انى بكيت
وصمت .. مع أنى رأيت وجهى الذى اشتهته التجاعيد
أخيرا .. ورأسى الذى دب فيها الشيب . الا أننى لأعرف ..

لاأظن اننى نبى . وماهذا بأمر ذى بال عندى .. لقد رأيت روحى وهى تومض وتخبو .. هل كان الأمر عندئذ يستحق أن أقطع الصمت ؟ وأقول هاأنا هنا الآن لأخبركم بكل شىء ؟ وسوف أخبركم بكل شىء ؟ هل كان الأمر يستحق بعد هذا كله ؟ هل كان عندئذ يستحق ؟ بعد غروب العمر .. بعد الروايات وأكواب الشاى والشعر ؟ والتماثيل واللوحات والكتب . بعد هذا كله وماهو أكثر منه " صمت " مستحيل أن أقول بالضبط ماأريد .. انا لست احدا سواى غير نفسى ولا أحب أن أكون سوى نفسى . انا شخص يصلح لأن يسدى النصح فقط .. اظهر الإحترام ويسعدنى أن أكون نافعا .. حذر .. كثير الوساوس.. موفور الحكمة والفطنه .. وان ضاقت الرؤى حولى فهو الصمت نبراسى وصوتى وكلامى الذى أحبه .. وان كانت تشوبنى أحيانا رهافة الإحساس . انى أهرم وأشيخ .. انى أذوى تماما تماما . انا بيتى منهار ويلسعنى الذباب .

الابن : ان أمى ...

الاب : المرأة تعنى دائما بالمطبخ والثياب .. تصنع الشاى وترمقنى فى كل مرة وكأنى ممسوس .. ضال ..لا .. انا رجل عجوز فقط ورأسى وسط فضاء تذروه الرياح .. العلامات تؤخذ مأخذ المعجزات .. الكلمة داخل الكلمه عاجزة عن نطق الكلمة .. اذن كان على أن أتشبث

بالصمت لأتفادى العجز الكلى .. لأ تفادى كل تلك العيون المحدقة بى . والرؤوس التى تحاصرنى لتنظر ماسوف افعل .. وماسوف أقول وماسوف تخطه يداى وقلمى .. لماذا يتربصون بى ؟ لماذا بعد كل هذا العمر المديد القاسى يطلون برؤوسهم من جميع نوافذى وابوابى وجدران نفسى ووسائد نومى ليفضوا بعيونهم بكارة اسرار قلبى ؟ بعد كل هذا .. أى غفران ؟ فكر فى هذا الان .. فكر .. للتاريخ مسالك ماكرة . دهاليز . منافذ بارعة الحيله .التاريخ يخدع بوسوسة الطموح .. يقودنا بالغرور.. فكرفى هذا الآن .. انه يعطى عندما نكون مشتتى البال ويقرن عطاياه دائما بأساليب افعوانية من التشويش .. حتى ان العطاء ليميت التلهف جوعا ومرضا .. يعطى بعد الآوان .. مالانؤمن به وان كنا لانزال به مؤمنين .. فماذلك الا ذلك فى الذاكرة وحدها .. نعم فى الذاكرة وحدها . ويعطى قبل ألأوان لأيد ضعيفة مانحسب اننا فى غنى عنه .. حتى يولد الرفض خوفا .. تذكر جيدا .. تذكر .. لا الخوف ينجينا ولا الشجاعة .. بطولتك تلك تنجب الرذائل الشاذة المروعة .. الفضائل تفرضها علينا الجرائم الوقحة .

الابن : "يبكى بصوت خفيض "

الأب : هذه الدموع تتساقط من الشجرة التى تحمل ثمار الغضب .. انما يبكى الرجال لأن الأشياء ليست كما ينبغى أن تكون .. فكر فى هذا الآن .

الأبن : أبى إنى أتعذب .

الأب : لم أتوصل بعد لأى نتيجة لأن عظامى متصلبة فى عالم كهذا .

انا ماعدت للكلام بلا هدف .. ولا كان السبب الحقيقى هو إقلاق شياطين الماضى خشية هذا العالم الزرى .. انى أهرم وأشيخ .. أشيخ وأهرم . انى أذبل تماما واصير كزهرة لم يمسسها عطر ابدا . انى اذوى تماما تماما . غير أن الشىء الوحيد الذى أستطيعه الآن هو الا أكترث بشىء فى قليل أو كثير .. لست فى حاجة لمن يبصرنى بشئون العالم . انا لا أريد ان اهتم خلال ماتبقى لى من أيام فى هذه الحياه سوى بشخصى .. وأصطفى الصمت مؤنسا وخليلا ..

(يذهب الأب الى احد الأركان ويدخل شرنقة الصمت)

ولاحاولت أن أخدعكم وانا الذى كنت قريبا من قلوبكم .. وقد أبعدت عنكم .. نعم حدث هذا . ابعدت عنكم جميعا . لقد أضعت عاطفتى .. وماحاجتى للحفاظ عليها ومصير كل شىء نحتفظ به .. هو التزييف المحتوم؟

لقد أضعت بصرى وشمى وسمعى وذوقى ولمسى .

فكيف السبيل الى استخدامها لأزداد قربا منكم ؟ انا رجل

عجوز تدفعه الريح الى ركن راكد

الأبن : ابى .. ارجوك .

الأب :" ينظر له برهة . بعدها ينبعث صوته الداخلى " أيها

الصمت المبارك .. أسدل ستارك الحريرى فوق رأسى .

(الجميع يلفه الصمت ثم تخفت الإضاءة تدريجيا)

إظــــــــــــــلام